

خليل مطران بين الشعر التاريخي والنضال السياسي

منصوره زركوب^١، زهرا سليمان پور^٢

تاريخ الوصول: ١٤٣٣/٧/٢٠

تاريخ القبول: ١٤٣٣/١١/٢٦

كان الشعر ولا يزال يسجل أحداث عصره، كما أنه مرآة ينعكس فيها بعض الوقائع التاريخية الهامة. فبعض الشعراء ومنهم مطران، قام في شعره بتسجيل الأحداث التاريخية. فنحن في هذه المقالة بصدد دراسة شعر مطران التاريخي والبحث عن آرائه في الصلة بين التاريخ والسياسة. كما تتناول هذه المقالة مواقفه من الجبارة والأمم المظلومة. وتبين دوره الريادي في قصائده التاريخية، وتحاول الكشف عن الأسلوب الذي اتخذ في إلقاء آرائه. توضّح هذه الدراسة أنّ الشاعر لا ينظر إلى الشعر التاريخي كسجلّ للأحداث، وإنّما يربط فيه بين مواقفه السياسية والتاريخ. فهو يتخذ من التاريخ وسيلة لتقديس الحرية كما يحرض أمته على مقاومة الاستبداد والظلم، فيندّد بالأمم التي انحنت لجبارتها بالاستكانة والخضوع لهم. ويشيد أيضا بالأمم التي قاومت الظلم ولم تكتف بالرجاء والدعاء في سبيل الحرية والاستقلال. إنه يتخذ مادة شعره التاريخي من تاريخ مصر قديمها وجديدها، ثم لا يكتفي به وإنّما يتخذها من تاريخ الأمم الأخرى كالفرس والروم لأنّه يعتقد بأنّ هناك صلة أو تشابهاً بين الأمم ألا وهي الانتقام من الجبارة. إنّ مطران قد بقي رائداً للتجديد في شعره التاريخي مستخدماً الأسلوب القصصي واللهجة الساخرة كما حاول خلق اللوحات التصويرية؛ ذلك بهدف التأثير النافذ في القارئ وإيجاد الصلة بين الأمم المختلفة باختلاف زمانها ومكانها.

الكلمات الرئيسية: خليل مطران، الشعر، التاريخ، السياسة، التجديد

١. أستاذ مشارك في قسم اللغة العربية بجامعة إصفهان، zarkoobm@yahoo.com

٢. طالب دكتوراه في قسم اللغة العربية بجامعة إصفهان، soleymanpoor@yahoo.com

المقدمة

شهدت مصر في القرن العشرين تحولات في النظم السياسية والاجتماعية التي سببت تحولات في الأدب، وقد كان مطران رائداً من رواد التجديد في الأدب العربي آنذاك؛ والشاعر الذي يحمل رسالة التجديد، يجب أن يساهم في هذه الحركات الاجتماعية ويقودها. مطران لم يعيش خارج هذه الأحداث وإنما كان آنذاك شاباً مناضلاً ضد الحكومة الجائرة للسلطان عبد الحميد مما تسبب في اغتيال فاشل له من جانب الحكومة ثم نفيه من موطنه لبنان. بقيت روح النضال ضد الظلم قائمة فيه، فاتخذ من الشعر والتاريخ وسيلة لتحريض الأمة ضد الظلم. وذلك بتعظيم تاريخ هذه الأمة أحياناً وإجلاله ليعث في الأمة روح الشجاعة، وحيناً آخر بالإقرار بوجود ترابط معنوي بين الأمم.

وهذا السبب هو الذي دعانا لدراسة العلاقة بين الشعر السياسي والشعر التاريخي لمطران، ونعني بالشعر السياسي، الشعر الذي يلتفت فيه الشاعر إلى القضايا السياسية في عصره فيعالج آلام شعبه فيما يرتبط بهذا الموضوع بحماسة فتندفق من شعره عواطف متناحرة في سبيل الحرية والاحتفاظ بالقيم الإنسانية. ونعني من الشعر التاريخي ما يعود فيه الشاعر إلى التاريخ فيتخذ مادة شعره منه ليوظفه في خدمة أهدافه.

والجدير بالذكر أنّ هناك عدداً غير قليل من النقاد اهتموا بشعر مطران ودرسوا شعره في كتبهم النقدية منهم: أحمد درويش، في كتابه: خليل مطران المسيرة والإبداع، الرمادي في كتابه: خليل مطران شاعر الأقطار العربية، عشقوتي في كتابه: خليل مطران شاعر القطرين والغيث في كتابها: خليل مطران في مرآة النقد الأدبي.

فمن درس من الناقدين شعر مطران وأفكاره، لابد أن يدرس قصائده التي ترتبط بهذا الموضوع لكنها لم توجد

— على حسب اطلاعنا— دراسة مستقلة خاصة بدور التاريخ في شعره. لكنها أعدت بعض الأطروحات حول مطران مثل: «بررسی شعر رومانتیک خلیل مطران» للطالبة سارا خنشا، «نقش خلیل مطران در طرح و تحول مکتب رومانتیک عربی» للطالب حسين اختر سيمين، «خليل مطران واشعار داستاني - تصویری» للطالبة فاطمة دهقاني احمدآبادی و«خليل مطران خاتم مکتب کلاسیک، فاتح مکتب رومانتیک» للطالبة بتول حسنعلی محمدی. كما عاجلت سليمان پور شعر مطران ضمن رسالتها في الماجستير تحت عنوان «خليل مطران شرح احوال وبررسی آثار» كما أعدت مقالة كتبها فيروز حريجي ومحتوى محمدی باسم «مظاهر رومانتیک در اشعار خلیل مطران» ولكن أكثر هذه الدراسات تنظر نظرة عامة إلى الشاعر، فلاتعالج موضوع التاريخ وعلاقته بالشعر السياسي في شعره كدراسة مستقلة ومستوفية. لذا فهذه المقالة تحاول تسليط الضوء على هذه الزاوية من شعره والإجابة عن الأسئلة التالية:

— ما هي الصلة بين السياسة والتاريخ من وجهة نظر مطران؟

— إلام يرجع ظلم الظالمين واجترأهم في التعدي والطغيان في رأي مطران؟

— بم يتميز شعر مطران التاريخي؟

— ما هو دوره الريادي في التجديد في قصائده التاريخية؟

١- فكرة مطران السياسية

مارس مطران النضال السياسي والوقوف وجهاً لوجه أمام جبابرة عصره منذ الشباب، فاتصل بأحرار بلاده و وقف في وجه السلطان عبد الحميد.

«كانت نفسه أشربت حب الحرية، فأخذ يتغنى بشعره ضد الاستعمار العثماني الذي كان يحكم وطنه حكماً ظالماً، وكان يخرج مع بعض رفاقه إلى مشارف بيروت.... ينفسون بما فيه حب للحرية عن أمانيتهم القومية» (عويضة، ١٩٩٤، ص ٧).

لقد استمر في مناضلاته ضد السلطان العثماني وأنشد في هذه الفترة شعراً ثورياً ضد الحكومة فلما ذاع خبر هذا الشعر أجبر على امحائه، ولكنه لم يبق صامتاً حتى ضاق الذرع بالحكومة فأمرت باغتياله، وفي ليلة من الليالي أطلق عمال السلطان النار على فراشه طائنين أنه فيه (انظر: عطوي، ١٨٩٨، ص ٤٠-٤١ و الرمادي، لا تا، ص ١٩).

وإثر هذه الحادثة خشيت أسرة مطران عليه ورأت أن يهجر بلده لبنان -مولده- ويهاجر إلى فرنسا. فأقام بها لمدة سنتين ولم تخل حياته هناك من الاتصال بالثوريين الفرنسيين. (حجازي، ١٩٧٥، ص ١٤، ١٥)

اتصل في فرنسا بجمعية تركيا الفتاة، واستمر بذلك في مناضلاته ضد استبداد عبد الحميد، فضيقت الحكومة الخناق عليه، فأتجه إلى مصر حيث وجدها منتجع الأحرار.

كل هذه الحوادث أثرت في حياة مطران وجعلت شعره ينبعث عن روح الحماسة والشجاعة وعدم تحمل الظالمين، ونرى هذه الروح مهيمنة على قسم كبير من شعره. والابتعاد عن الوطن لم يُخمد هذه الروح وإنما نرى لمعات منها بين الحين والحين، فلما تسلط قانون المطبوعات على الأفكار قال قصيدته المشهورة بعنوان "المقاطعة":

شَرَّدُوا أَخْيَارَهَا بَحْرًا وَبَرًا

وَاقْتُلُوا أَحْرَارَهَا حُرًّا فَحُرًّا

...

كَسَّرُوا الْأَقْلَامَ هَلْ تَكْسِيرُهَا

يَمْنَعُ الْأَيْدَى أَنْ تَنْقُشَ صَخْرًا؟

...

أَحْمِدُوا الْأَنْفَاسَ، هَذَا جُهْدُكُمْ

و بِهِ مَنَجَاتُنَا مِنْكُمْ ... فَشُكْرًا!

...

(مطران، ١٩٧٧، ج ٢: ص ١٤٠)

يرى مطران أن للقلم رسالة كبيرة، ويراه كسيف حاد في يد أهله، ويرى على نفسه أن لا يحتسبه عند الظلم، لأن القلم يفعل ما لا يقدر عليه السيف. السيف يُميت والقلم يُحيي، فبإمكان القلم أن يُحيي حتى العظام البالية:

فِيمَ احْتِبَاسُكَ لِلْقَلَمِ

وَالْأَرْضُ قَدْ خُضِبَتْ بِدَمٍ؟

سَدَّدَ قَوَيْمَ سِنَانِهِ

فِي قَلْبٍ مَنْ لَا يَسْتَقِيمُ

تَبَّهَ بِهِ أُمَمَ الزَّوَا

لِ فَعَلَهُ يُحْيِي الرَّمَمُ^(١)

.....

بَيْنَ الَّذِينَ يُقَاتِلُوا

نَ وَبَيْنَ قُرْبَى النَّقَمِ

مَنْ يَسْتَبِيحُهُ عَدُوْنَا

فَلَهُ بِنَا صِلَةُ الرَّجْمِ

(م.ن، ج ٣، ص ١٦٠)

يتخذ مطران من الشعر التاريخي وسيلة لتحريض الناس على التصدي للجباية، فهو لا يرى الشعر منفكاً عن الحياة وعن قضايا المجتمع، لأن قلبه ينبض من أجل كل مظلوم في العالم، فيعالج القضايا الاجتماعية في شعره كما يعالج القضايا السياسية.

«شعرُ مطران شديد الصلة بالحياة وبالناس، فهو نصير المظلومين والضعفاء. وعاطفته المتأججة بالنبل تحني من الأسى لسقوط الخير تحت مخالب الواقع والحتمية المستبدة،

— التاريخية واللغوية والأدبية والاجتماعية— في خدمة الحرية، ومقاومة الاستبداد، وهي ثقافة لم تيسر لأحد من معاصريه، ومن الشعراء خاصة» (نقلا عن: الغيث، ٢٠١٠، ص ١٩٤).

إنه يعتبر التاريخ أمّا للأمم. ينبغي لها أن لا تنفصل عنه وتجعله معتمدا ومتكّأها. فحكّام الجور عندما يريدون السيطرة الكاملة على أمة، يسعون في محو تاريخها وانفصالها عنه، لأنّ الأمة المنفصلة عن أصلها وعن تاريخها لا تتكئ على شيء وتعيش في الحوفاء. فهو ينظر إلى التاريخ بمثابة ما يربي الأفكار ويهيئ الأجيال للمستقبل. يقول مطران في مقدمة ترجمة لقصة فرنسية إلى العربية باسم "قصة وردة" وهي قصة تاريخ مصر، نشرها مطران في مجلته، المجلة المصرية: «وإنه لمن الأمور الثابتة بالاختبار أنّ الأمة التي لا تعرف ماضيها لا تدرك حاضرها ولا تحسن التهيؤ لمستقبلها» (أبوشوارب، ٢٠١٠، ص ٢٤٣).

أيّ أمة ليس لها تاريخ عريق تتكئ عليه تخلو من أي اعتراض، فلا يصعب على المستبد السيطرة عليها. في قصيدة «السرور الكبير» في الصين نرى الملك وهو يمتنّ بأمة مخمورة من الذلّ، أمة لا يغضبهم ظلم، ويهدف إلى محو تاريخ الأمة ليحقق أمانيه:

إِنِّي مُنِيتُ بِأَمَّةٍ مَخْمُورَةٍ
مِنْ ذُلِّهَا، وَلَهَا الْقَنَاعَةُ مَشْرَبُ
لَا ظُلْمَ يُغْضِبُهُمْ وَلَوْ أَوْدَى^(١) بِهِمْ
أَتَعَزُّ شَأْنًا أَمَّةً لَا تَغْضِبُ

...

وَلَا تُحَوِّنُ رُسُومَ أَسْلَافِي بِهَا
فَيَبِيتُ مَاضِي "الصِّينِ" وَهُوَ مُحَجَّبُ
وَيَظُنُّ عَهْدِي بَدْءَ عَهْدٍ وَجُودَهَا
فَيَتِمُّ لِي الْفَخْرُ الَّذِي أَتَطَلَّبُ
(مطران، ١٩٧٧، ج ١، ص ١٣٤، ١٣٣)

فهو في معظم قصصه الاجتماعية يراوده حلم كبير جسّده في أبطاله، فقدّس الحرية وأشاد بالبطولة والفضيلة والوفاء مقررّاً بالظالمين وبأبناء الفساد والذيلة» (عشقوتي، ١٩٩١، ص ٦٦).

لا ينبعث شعره السياسي إلا عن روحه الثورية، فلا يطلب منه مالا ولا شهرة وإنّما يعرض نفسه في معرض الخطر ليؤدي واجبه الإنساني تجاه إخوانه من بني البشر، و«ظل حب الحرية سارياً في دمه، كما ظل كره الاستبداد شديداً في نفسه، فكان همه نشر هذا الحب، وهذا الكره أيضاً في النفوس لا كشاعر ذا أغراض سياسية، بل كشاعر إنساني غايته أن يوجه مواطنيه نحو الحياة المثلى» (المقدسي، ١٩٧١، ص ١٢٥).

فشعر مطران التاريخي لا ينفصل عن شعره السياسي، فقد نشأ عن فكرته السياسية وليس إلّا امتداداً وتوسيعاً وتعميقاً لمواقفه عن الجبايرة.

٢- ثقافة مطران في التاريخ وأثرها في شعره

لمطران ثقافة عميقة في التاريخ ولا يعتني به كمادة تعليمية لاطلاع الأجيال على التاريخ، وإنّما يعتبره موضوعاً لأشعاره ليكون درساً للإنسان في أيّ مكان وزمان. فكما تعمقت ثقافته في الأدب بقراءة أشعار من سبقوه من شعرهم الجيد والاعتماد على ينابيع اللغة والأدب وحفظ صلة لغته الحديثة بالتراث، تعمقت ثقافته في التاريخ ليعتمد عليه في مادته الشعرية.

يقول عبدالقادر القط حول ثقافة مطران واستخدامه هدف التجديد والدفاع عن المظلومين: «الجديد في حرب مطران هذه، إنّما هو تلك «الأسلحة» التي اعتمدها في بلوغ هدفه، واستخدمها في «تجنّده». وهي عبر التاريخ القديم والحديث، وانتقاء التفاصيل، والتركيز على أحداث مجهولة من عامة قراء العرب... أي أنّه وضع ثقافته الواسعة

وهذه الفلسفة تجعله يتخذ مادة شعره تارة من تاريخ
الفرس وتارة من تاريخ الروم وتارة من تاريخ العرب.
ويأخذها كمادة للإعتبار لا للفخر، إنه يعتبر من تاريخ
الفرس كما يعتبر من تاريخ العرب، فهو يعمل بمصداق
﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٧)

ولا يتفاوت عنده أن هذا التاريخ لأية أمة كان وفي أي
زمان، فمحاربة الظلم والجور هو وجه التقريب بين الأمم.
و«يمكننا أن نقول أن الشعر العربي، على مدى تاريخه
الطويل لم يجعل بصفة عامة التاريخ ينبوعاً للاستلهام
الشعري كما رأينا في قصائد مطران. فمطران من هذه
الوجهة يعد شاعراً مجدداً ورائداً في هذا المجال. ومن المؤكد
أن الشعر العربي قد اتخذ من قبل التاريخ موضوعاً له، ولكنه
كان دائماً التاريخ المحلي أو القبلي الذي تستحضره
القصائد... وأحياناً يستحضر التاريخ في الأشعار القومية
التي تتغنى بانتصارات الماضي أو تبكي ممالك الإسلام
البائدة» (درويش، ٢٠١٠، ص ٢٠٣).

إن مطران لا يكرر ما قيل من أن الآثار الباقية وسيلة
للاعتبار وأنها تدلّ على الزوال وما إلى ذلك. إنه ينظر
بمنظار آخر وهذا هو الذي خلّده. نراه يقول في قصيدته
الخالدة «الأهرام» وهي صرخة ضد الظلم:

شَادَ فَأَعْلَى، وَبَنَى فَوَطْطَا
لَا لِلْعَلَى وَلَا لَهُ بَلْ لِلْعِدَا
مُسْتَعْبِدٌ أُمَّتُهُ فِي يَوْمِهِ
مُسْتَعْبِدٌ بَنِيهِ لِلْعَادِي غَدَا
صُفْرَ الْوُجُوهِ نَادِيًا جِبَاهُهُمْ
كَالْكَلِّ الْيَاسِ يَعْلُوهُ النَّدَى^(٣)
مَحْنِيَّةٌ ظُهُورُهُمْ، خُرْسَ الْخَطَى
كَالنَّمْلِ دَبَّ مُسْتَكِينًا مُخْلِدًا

ويتكلم مطران على لسان شاعر هذا الملك، فيحاول
تحذيره عن محو تاريخ هذه الأمة مستدلاً أن التاريخ في
الأمم كالنحت في الصخر لا يمكن إزالته ومن يسعى في
هذا الطريق لا يجني غير التدامة والملازمة:

فَعَلَامَ أَنْتَ تُزِيلُ ذِكْرَ مُلُوكِهَا
وَأُولَئِكَ الْعُظَمَاءُ مَوْتَى غُيِبُ
إِنْ تَمَحُّ مِنْ أَسْفَارِهِمْ أَخْبَارُهُمْ
فَالصَّخْرُ يُنَحْتُ وَالْمَنَاحِتُ تُكْتَبُ
وَلَيَعْلَمَنَّ النَّاسُ بَعْدَكَ أَمْرَهُمْ

فَتَلَامُ مَا طَالَ الْمَدَى وَتَوُتَّبُ
(م.ن، ص ١٣٤)

لا يختلف موقف مطران في شعره التاريخي عن موقفه في
شعره السياسي الصارخ ضد الظلم. وهو في هذا الموقف
ينبعث عن نفس يؤلمها الظلم والاستبداد فاتخذ من شعره
وسيلة للتعبير عن شكوى نفسه. فيقول: «الشكوى هي
صرخة النفس المعذبة، وصرخة الفكر الراغب في الإصلاح.
وقد شكوت أنا في قصائدي كثيراً، فليس من قصيدة
كتبتها إلا وفيها تنديد بالظلم الاجتماعي وتطلع إلى
المساواة والحرية والعدل» (جحاح، ١٩٩٥، ص ١٤٦).

٣- شمولية مادة شعر مطران التاريخي

إنه يتخذ من التاريخ مادة لإثبات فلسفته، نعم له فلسفة في
الشعر السياسي والشعر التاريخي، وفلسفته تبتني على معارضة
الظلم أينما كان فلا يتفاوت عنده أهو في الشرق أم في
الغرب. فكل أبناء البشر إخوته، وكل ظلم يعترهم كأنه
اعتراه، فليس الدم صلة بين بني البشر، وإنما الانتقام من كل
جائر هو الذي يعتبر صلة بينهم، وهو أقرب من صلة الرحم:

يَبْنِ الدِّينَ يُفَاتِلُو نَ وَبَيْنَنَا صِلَةُ الرَّجِمِ
(م.ن، ج ٣، ص ١٦)

وفي قصيدته الأخرى «في ظلّ تمثال رعمسيس»^(٤)
يؤكد على هذا الأمر بشكل أوضح وأجلى، فينسب مجد
هذا الفرعون إلى الصانعين الحقيقيين لهذا المجد، من
الشجعان الذين أبلوا في الحروب بلاءً حسناً ولكن سُجل
النصر في التاريخ لرعمسيس فلم يبق ذكرهم وبقي المجد له:

مُخَلِّدَ الْمَجْدِ دُونَ الْقَائِمِينَ بِهِ

مِنْ شَوْسِ حَرْبٍ وَصُنَاعٍ وَأَعْوَانٍ^(٥)
مُخَالِسًا ذِمَّةَ الْعَلِيَاءِ^(٦) مُضْطَجِعًا

مِنْ مَهْدِ عِصْمَتِهَا فِي مَضْجَعِ الزَّانِ
بِحَيْثُ أَبَ وَكُلُّ الْفَخْرِ حِصْنُهُ

وَلَمْ يُؤْبَ غَيْرُهُ إِلَّا بِحَرَمَانِ
كَمْ رَاحَ جَمْعُ فِدَى فَرْدٍ وَكَمْ بُذِلَتْ

فِي مُشْتَرَى سَيِّدِ أَرْوَاحِ عُبْدَانِ
لُوقِعِ الْأَمْرِ فِيهِمْ كُلُّ تَكْرِمَةٍ

وَمُنْفَذِ الْأَمْرِ فِيهِمْ كُلُّ نَسِيَانِ
(م.ن، ج ٣، ص ٤٢١)

ولم يفته ذكر مجد رعمسيس، فهو ككلّ عربي بل
ككلّ إنسان عندما يقف أمام هذا التمثال الذي يدلّ على
المجد الذي بنى لمصر تأخذه الهيبة والرهبنة ويشيد به:

يَا صُورَةً شَبَّهَتْ صَخْرًا بِإِنْسَانِ

فِي رَوْعَةٍ مَلَأَتْ قَلْبِي وَإِنْسَانِي
لَا وَجْهَ أَهْبَى وَلَا أَزْهَى بِرَوْنَقِهِ

مِنْ وَجْهِكَ النَّصْرِ فِي مَنَحُوتِ صَوَانِ
مَنْ الْمَلِكُ الَّذِي تَنْنِي جَلَالَتُهُ

عَنْهُ، وَيَمْضِي فَمَا يَنْبِيهِ مِنْ ثَانٍ؟
(م.ن، ص ٤١٨)

ثمّ يستمرّ في تعظيم التمثال وإجلاله لبقائه على مرّ الدهور
فبقائه حيّاً قائماً يريب الناظر و يوحى له بأنّ صاحبه خالد،
والذي يزيل هذا الريب هو أنّ تماثيله الأخرى قد حُطّمت. ثمّ

مُجْتَمِعِينَ أَبْحَرًا مُتَفَرِّعِينَ

أَنْهَرًا، مُنَحْدِرِينَ صُعْدًا

أَكُلْ هَذِي الْأَنْفُسِ الْهَلَكَى غَدًا
تَبْنِي لِفَانٍ حَدَثًا مُخَلِّدًا؟

(مطران، ج ١، ص ٤٦٠)

وهو يصرخ بصوت عال ضد هؤلاء الظالمين بأنّ هذه
الصروح والقبور لا تخلدكم، وأنّ الذكر الجميل هو الذي
يبقى، وأنّ هؤلاء المظلومين سوف ينهضون ويثورون
عليكم ويدوسون رؤوسكم، والأجساد التي كنتم تسعون
في خلودها بتوسيع القبور لها - ظناً منكم أنّ القبور حرزٌ
لأجسادكم - سوف يعرضون في مشهد عام:

يَا أَيُّهَا الْمَوْتَى أَلَمْ يُسْمِعْكُمْ

صَوْتَ الْمُنَادِي صَادِعًا مُرَدَّدًا؟

قَوْمُوا أَنْظَرُوا السُّوقَةَ فِيمَا حَوْلَكُمْ

تَدُوسُ هَامَاتِ الْمُلُوكِ هُمْدًا

قَوْمُوا أَنْظَرُوا الْعَدُوَّ فِي دِيَارِكُمْ

يَحْكُمُ فِيهَا مُسْتَبَدًّا أَيْدًا

قَوْمُوا أَنْظَرُوا أَجْسَادَكُمْ مَعْرُوضَةً

فِي مَشْهَدٍ لِمَنْ يَرُومُ الْمَشْهَدَا

بَعَثَ بِهِ يَسْأَلُكُمْ حِسَابَ مَا

قَدَّمْتُمْ مِنْ رَاحٍ مِنَّا وَاعْتَدَى

لَمْ يُغْنِكُمْ مِنْهُ الْبِنَاءُ عَالِيًا

وَالْأَرْضُ نَهَبًا وَالْمُلُوكُ أَعْبَدَا

وَكَانَ يُغْنِيكُمْ جَمِيلَ الذِّكْرِ لَوْ

حَفَظْتُمْ اللَّحْدَ وَ شِدْتُمْ بِالْهُلْدَى

أَخْطَأَ مَنْ تَوَهَّمَ الْقَبْرَ لَهُ

حِرْزًا يَفِيهِ بِالرَّدَى مِنَ الرَّدَى

(م.ن، ج ١، ص ٤٦٠)

يشير إلى حروبه الظافرة التي سجلت لمصر عظمة خالدة ويشير إلى الحضارة التي صنعها لمصر.

٤- دور الأمم في بناء التاريخ عند مطران

لمطران فلسفة أخرى في شعره التاريخي نشأت عن فلسفته السائدة على شعره السياسي، وهي أن الأمم هي المسؤولة الوحيدة عما يفعل حكامها: إنه يلقي مسؤولية كل ما يُفعل بحق الشعب على عاتق الشعب نفسه ويعتقد أن الجهل والقناعة والرضا والسكوت أمام الجبارة يدعوهم إلى ظلم أكثر ويحرّضهم على إذلال الرعية، فالشعب يصنع الجبارة بتأييدهم والأمة هي التي يجب أن تلام على الظلم الذي تعانيه لا الحاكم الجائر: مَنْ يَلْمُ نَيْرُونَ إِيَّيْ لَائِمٌ

أُمَّةٌ لَوْ كَهَرَتْهُ ارْتَدَّ كَهْرًا^(٧)

(م.ن، ج ٢، ص ١٢٤)

والتأييد للجبارة نابع عن جهل الأمة، فالخمول والقناعة هما السببان الرئيسان في بقاء الظالمين على ظلمهم: إِيَّيْ مُنِيْتُ بِأُمَّةٍ مَخْمُورَةٍ

مِنْ ذُلِّهَا وَلَهَا الْقَنَاعَةُ مَشْرَبٌ

(م.ن، ج ١، ص ١٣٣)

ولكن الظلم لا يبقى والظالم يفنى ولو كان في برج مشيد ويحمى بأشد الجدران استحكاماً وبأكثر الحجارة تلاحماً. فهذا جدار الصين التحم بالحجارة وبآلاف من أجساد الشعب المظلوم، فهل يحمي بانيه من الهلاك؟

مطران في قصيدته "السور الكبير في الصين" يتحدث على لسان شاعر الملك الذي يتقلب على سريره الذهبي وهو يمتنى أن يرفع جداراً كالأرض لا يفنى ولا يتخرب، فينصحه الشاعر ويحذّره بأن الجدار سوف ينهدم. وما أصدق ما تبصّر مطران في خراب جدار الصين.

أَمَّا الْجِدَارُ فَلَوْ رَفَعْتَ بِنَاءَهُ

حَتَّى اسْتَقَرَّ عَلَى ذُرَاهُ الْكَوْكَبُ

وَلَوْ الْجِبَالُ جُعِلْنَ بَعْضَ حِجَارِهِ

وَلُجِمْنَ حَتَّى الْمَاءُ لَا يَتَسَرَّبُ

فَلْيَحْدِثَنَّ النَّاسُ مَا هُوَ فَوْقَهُ

عِظْماً وَإِتْقَاناً وَمَا هُوَ أَغْرَبُ

.....

وَلَتَنْفُذَنَّ إِلَى «بَكِينَ» خَلَائِقُ

بَيْضَاءُ تَغْنَمُ مَا تَشَاءُ وَتَنْهَبُ

(م.ن، ج ١، ص ١٣٥)

أما قلوب الشجعان فهي التي بإمكانها الدفاع عن الوطن، والفضيلة هي التي تحمي الأوطان عن الخراب، والملك الذي يبني دعائم عرشه في قلوب شعبه يمكن أن يطمئن باله في دوام ملكه و وطنه:

مَاذَا يُفِيدُ السَّوْرُ حَوْلَ دِيَارِهِمْ

وَقُلُوبُهُمْ فِيهَا ضِعَافٌ هُرْبُ

...

لَا يَعِصِمُ الْأُمَمَ الضَّعِيفَةَ فِطْرَةً

إِلَّا فَضَائِلُ بِالتَّجَارِبِ تُكْسِبُ

فَتَكُونُ حَائِطُهَا الْمَنِيْعَ عَلَى الْعِدَى

وَتَكُونُ قُوَّتُهَا الَّتِي لَا تُغْلَبُ

(م.ن، ص ١٣٥)

هذا موقف مطران أمام السور التاريخي في الصين حيث صاغ موقفه في صيغ خيالية عن هذا الجدار حول ظلم الجبارة والقلوب التي تستطيع مواجهته.

وفي قصيدته تحت عنوان ١٨٠٦ - ١٨٧٢ يشرح بأس الألمان وشجاعتهم أمام المعتدي (نابليون الأول) حيث دخل بجيشه ألمانيا ودخل برلين، فأبلى الألمان بلاءً حسناً في الدفاع عن وطنهم، ولهذا الحرب استناد تاريخي يؤيد

حقيقتها (انظر: فوگل، ١٣٨٠، ص ٨٩٦، ١٠١٠، ١٠١١). فتهاجموا تهاجم الآساد، يُلقَى الرجال على الثرى مخضبين بدمائهم، ولم يكد فارس يهوي من فرسه حتى يدعو الفرس بصهيله فارساً آخر إذا احتاج إلى فرس ليركبه ويغزو، فكان القتلى كثيرين ولم تستقبل الألمان المعتدي إلا بجائط مرصوص من الأجساد.

حتى إذا كمل العتاد^(٨) تقادفوا

بالتار ذات البرق والإرعاد

شهب ضخام آتبات والردى

بمسيرهن ومثلهن غواد^(٩)

تلقى الرجال على الثرى قتلى كما

يلقى السنايل منجل الحصاد

لله درهم وقد حمى الوغى

فتهاجموا كتهاجم الآساد

تدعو الجراحة أختها بصدورهم

والسيف يتلو السيف في الأحياد

وإذا التقى بطلان لم يتجندلا

إلا معاً من شدة الأحقاد

وإذا جواد خر فارسه دعا

بصهيله ذا حاجة بجواد

(مطران، ج ١، ص ٣٤٤)

لكن الفرنسيين عزموا على الفتح فاستفتحوا برلين

المنبعة. وبقي الحال هكذا إلى انتصار فرنسا والهيمنة على

برلين ولكن الشعب لم ينس غضبه على الفرنسيين، فلا

سبيل لهم إلا الصبر، فلم يصبروا راضين قانعين، وإنما

صبروا والغيط في أكبادهم، وقد عبّر الشاعر عن ذلك

بأنهم استعصموا بالصبر، وتدل هذه الكلمة على مدى

اعتقاد ذلك الشعب الشجاع بالصبر، فهو يستعصم به

ليستغله للنجاح في الوقت المناسب له، فيكظم الغيط في

قلبه ويتأهب للثار، فهم أحرار لا ينجون الاعتداء على أحد. وقد استشهد كثير منهم في الدفاع عن الوطن:

يا خجلة الأحرار من موتاهم

يتوون حيث المالكون أعادي

فاستعصموا بالصبر، ثم تكاتفوا

وتحرروا من رق الاستعباد

وتأهبوا للثار والأحقاد في

أكبادهم كالبيض في الأغمار

حتى إذا اشتدوا وضاق عدوهم

ذرعاً بهم أصلوه حرب جهاد

(م.ن، ص ٣٤٥)

فإذا حان الموعد وآن الأوان، قاص فشله ونجح نجاحاً

باهراً إذ دخل باريس فاتحاً.

وفي النهاية يلقي الشاعر الدرس الذي هياً له الطريق بهذه

القصة فيلخص ما أراد أن يقول للأمم الشرقية في بيت:

كل بمسعاه يفوز ومن يُنب

عنه الحوادث لم يفز بمُراد

(م.ن، ص ٢٦٥)

هذا التكريم والإعظام للشعب الذي لا يخضع أمام ظلم

المعتدي نراه في قصيدة قصصية أخرى لمطران، وهي «فتاة

الجليل الأسود». فهو في هذه القصيدة يقص علينا قصة أمة

الجليل الأسود التي احتلت بلادها الحكومة التركية فطغت

عليها برجالها ونسائها وشبابها وشيوخها. فمثل هذه الأمة

لا تحتفظ بكرامتها و وطنها فحسب بل تُعلم المعتدي أن

يكف الأيدي عن صراعها:

أنهلك شعباً غزت داره

ثقال الجيوش فلم يخلد

خليق بنا أن نرد القلى

وداداً ومن يصطنع يودد

فَمَا بَلَدٌ تَفْتَدِيهِ النَّسَا

ءُ كَهَذَا الْفِدَاءِ بِمُسْتَعْبِدٍ

(م.ن، ج١، ص٤٦٥)

في القصائد التاريخية يعود مطران إلى التاريخ ليتخذ أبطال قصصه منه، فيتكلم معهم ويتكلم عنهم، ويصف في قصصه المظالم التي جرت على الشعوب ويصرخ في وجه الظالمين. ولكنّه في الوقت نفسه يسدّد سهمه الأقوى إلى الشعوب ليجعل مسؤولية هذه المظالم على عاتقه دون أن يخفض من شأنها.

الف) اللهجة الساخرة

كان مطران شاعر الأخلاق، فهو إنسان متّزن لم يهجُ أبداً، ولكن هناك صور ساخرة نرى في شعره، وليست السخرية في شعره مقصوداً بها الخفض من شأن أحد ولا التفكه والمداعبة. فقد استخدم هذا اللون وسيلة للتأثير العميق، إذ جاءت السخرية في شعره لاذعة.

«والغريب العجيب أن يستخدم الخليل هذه الآليات في شعره، وهي سلاح هجومي هجائي ساخر، ولذلك لا أثر لهذه الآليات في شعره الذاتي الغنائي، ولكنه استخدمها في شعره الموضوعي، ولا سيما شعره التاريخي في الحرية، وهو يصف المستبدين الذين لا يجدون مقاومة من شعوبهم» (الموسى، ٢٠١٠، ص١٥٤).

فهو يسخر تارة من الظالم المستبد، وأخرى يسخر من الشعب الذي اتخذ الصمت وسيلة ليعيش عيشة أمن تخرجه من إنسانيته وفتوّته الإنسانية، وتقربه من النعاج التي أولت اختيارها التام إلى راعيها لتعيش آمنة من الأهوال والفتن، فللوصول إلى الأمن خلع نفسه من التفكير والاختيار:

يَا أُمَّةَ الْفُرْسِ الْعَرِيقَةَ فِي الْعُلَى

ماذا أحالَ بِكَ الْأَسْوَدَ سِخَالاً^(١٠)؟

(مطران، ج٢، ص٤٨٦)

٥- دور مطران الريادي في التجديد في شعره التاريخي

لا يمكن انفصال الشعر التاريخي لمطران عن شيئين: الأول: الشعر القصصي، فأشعار مطران القصصية تتناول موضوعات مختلفة، منها ما يرتبط بالحبّ والمرأة في حياة مطران، ومنها الموضوعات الاجتماعية، ومنها الموضوعات التاريخية. فكثير من شعر مطران التاريخي جاء في سياق السرد، صاغه في قالب القصّة مثل «فتاة الجبل الأسود» وقصيدة «بزرجمهر» وقصيدة «نيرون». فقد جاء بعضه في سياق النداء ومحاطبة ما يدلّ على تاريخ مصر والفراعنة كالقصيدتين «في ظل تمثال رعمسيس» و «الأهرام». أما الثاني وهو السياسة كما أسلفنا. فدور مطران الريادي في هذا النوع من الشعر يظهر في تجديده في امتزاج الشعر التاريخي والقصصي كما يظهر في وضع العنوان على قصائده، وهذا الأمر لم يكن مألوفاً قبله (انظر: الموسى، ٢٠٠٠، ص٢٨).

وضع العنوان في القصيدة ينبع طبعا عن سمة أخرى للتجديد أكثر منها جذرياً وهي الوحدة العضوية فيها، فالعنوان يدلّ على الروح المسيطرة على القصيدة، والرسالة

يسخر الشاعر من هذه الأمة التي تأتي رغماً عنها لتشهد
قتل المصلح الذي أحيا البلاد وملاها عدالة ونوالاً، فتخفي
في صدورهم الكظم والغيط، وتبدي السرور والفرح في
حين يدمى قلبها من شدة الحزن. لكن مثل هذه الأمة لا
تصح برائتها وإنما تحمل غرامة سكوتها وخضوعها للظالم،
فتستحق السخرية وإزالتها من صفات الرجولة:

وَبَقِيَتْ وَحَدَّكَ بَعْدَهُ رَجُلًا فَسُدَّ

وَأَرَعَ النَّسَاءَ وَدَبَّرَ الْأَطْفَالَ

مَا كَانَتْ الْحَسَنَاءُ تُرْفَعُ سِتْرَهَا

لَوْ أَنَّ فِي هَذَا الْجُمُوعِ رِجَالًا

(م.ن، ص ٤٨٩)

يتكلم الشاعر على لسان بنت بزرجمهر ويتهم الشعب
بأنه إذا لم يقف أمام الظلم ولم يصمد في وجه الجبابة
وأصبح همه الوحيد أن يعيش بأي ثمن ولو كان ثمرة ذلك
هو الإذلال والخفة، فإنه لا تتوفّر فيه الشروط اللازمة
والكفاية واللياقة لرعاية النساء وتدريب الأطفال، فانخلع
بذلك من تعريفه النوعي والجنسي، ولذلك لم تر داعياً
لالتزام بالحجاب في مثل هذا الجمع، الذي يبدو وكأنه
ليس فيه رجل.

وفي شعره سخرية أيضاً من الحاكم الذي يقسى على
الناس، وكيف أنه يعمل على هواه إذا سكّته عنه الناس
وأفسحوا المجال له ولجرائمه. فيسخر بنبيرون ويسخر
بالشعب الذي يؤيده، وكأن هذا التأييد ليس مما يمل عليه
الحاكم الجائر بل كأنه نابع من نفسه. ويدّعي نبيرون كل
يوم فتناً جديداً ويقرّ الشعب له بهذا الفنّ دون أن يحظى
بنصيب منه، فقد صوّر الشاعر قبل هذه الفقرة نبيرون
بصفات رديئة خلقية وخلقية:

أَيُّ شَيْءٍ كَانَ نَبِيرُونُ الَّذِي

عَبَدُوهُ؟ كَانَ فَظَّ الطَّبَعِ غَرًّا

بَارَزَ الصُّدُغَيْنِ رَهْلاً بَادِئاً

لَيْسَ بِالْأَتْلَعِ يَمْشِي مُسَبِّطاً^(١)

(م.ن، ج ٢، ص ١٠١)

وفي هذه الفقرة يردف المحاسن التي يدّعيها نبيرون
ويسخر من الشعب الذي يقرّ له بهذه الصفات، ويدّعي أن
فيه الحسن بأكمله، بل بأحسن ممّا يريد نبيرون فهذا
الشعب حقيق بالاستهزاء:

قال: بِي حُسْنٍ فَقَالَتْ: وَبِهِ

يَا فَقِيدَ الشَّبْهِ، فُقَّتِ النَّاسَ طُرًّا

فَتَرَقَّى، قَالَ أَتَيْ مُطَرِبٌ

فَأَجَابَتْ: وَتُعِيدُ الصَّخَوَ سُكْرًا

فَتَمَادَى، قَالَ: فِي التَّصْوِيرِ لِي

غُرْرٌ، قَالَتْ: وَتُؤْتِي الرَّسْمَ عُمْرًا

فَتَغَالَى، قَالَ: فِي التَّمثِيلِ لَا

شَبْهَ لِي قَالَتْ: وَيُحْيِي الْمَيِّتَ نَشْرًا

فَتَنَاهَى، قَالَ: إِنِّي شَاعِرٌ

فَأَجَابَتْ: إِنَّمَا تَنْظُمُ دُرًّا

(م.ن، ج ٢، ص ١٠٩)

وحقاً أوصله شعبه من التخيل والتوهّم إلى حدّ ينقل
عنه أنّه عندما أجبر على الانتحار قال قبل موته آسف!
فسيفقد العالم بموت فتاناً كبيراً.

وفي قصيدته ١٨٠٦-١٨٧٠ جاءت كلمة تحمل معناً
آخر مغايراً للمعنى الأصلي، ليستفيد منها في السخرية فيما
يشبه بما سمّاه الأقدمون "تأكيد الدم بما يشبه المدح"، فيعبّر
عن استعداد الألمان لنضال الفرنسيين الذين دخلوا
بلادهم:

فَتَهَيَّ الْأَلْمَانُ لاسْتِقْبَالِهِ

كَالْحَائِطِ الْمَرْصُوصِ بِالْأَجْسَادِ

(م.ن، ج ١، ص ٣٤٤)

وفي هذا التعبير نوع من السخرية من المعتدي.
ومثل هذا الاستخدام الساحر يجري في موضع التهديد
والتنديد والاستكانة بالمستبدّين:
أَحْمِدُوا الْأَنْفَاسَ، هَذَا جُهْدُكُمْ
وَبِهِ مَنجاتنا مِنْكُمْ فَشْكُرا!

(م.ن، ج ٢، ص ١٤٠)
فالشكر للمستبد لا يدلّ إلا على سخرية، ولها تأثير
أقوى وأشدّ من التعبير الصريح المباشر.

ب) خلق اللوحات

لمطران قدرة متميزة وفائقة في تصوير الأجزاء في قصصه
التاريخية. فهو لا يكتفى في قصصه الشعرية بالقصّ فقط،
وإنما يرسم للقارئ لوحات متميزة عن أحداث قصّته،
فكأنك تشاهد فلماً لهذه القصّة، فرسمه دقيق وبلغ. وإذا أخذ
القلم ليرينا لوحة حول لحظة من لحظات حوادثه فهو رسّام
باهر، لا يفوته شيء مما يثير القارئ، ويقرّر في ذهنه ما يقصد
تثبيته. وكيف يمكن للرسّام أن يرسم خلجات النفس من
القلق والاضطراب ومن الهيجانات النفسية؟ فمطران لا يعجز
عن هذا. ففي شعره لوحات مختلفة الألوان. فمن تصوير
السكون والحركة، ومن تصوير الأصوات والضوضاء وفي
مقابلها السكوت الناشئ عن القلق، ومن تصوير مسرح
الأحداث، ومن تصوير أحاسيس أشخاص القصّة وإن لم
يكونوا من أبطالها ولا من شخصياتها الأصلية.

ويمكن أن ندرس هذه التصاوير في قصيدة ١٨٠٦-
١٨٧٠، لنشاهد قدرته في تصوير الحركة في رسم لوحة
من حرب الألمان وفرنسا، يصوّر فيها حركة الجيش الباسل
لمحاربة المعتدي فتسري حركة الجيش إلى الجبال والوادي
والمهاد، فكأنّها كلّها تحرّكت بحركة الجيش كثرة وقوّة

وحماسة. فالطبيعة الساكنة الهادئة الجامدة تحرّكت نتيجة
هذه الحركة الباسلة وكأنّ الجامدات قد نُفّثت فيها الروح:
مَشَتْ الْجِبَالُ بِهَمٍّ وَسَالَ الْوَادِي
وَمَضَوْا مِهَاداً سِرّاً فَوْقَ مِهَادٍ
يُحْدِي بِهِم مُتَطَوِّعِينَ كَأَنَّهُمْ

عيسٌ وَلَكِنَّ الْفَنَاءَ الْحَادِي
(م.ن، ج ١، ص ٣٤٣)
فقائد الجيش في حركته هذه ليس قائد البهجة
والانتصار، وإنّما يقوده الفناء والموت، فلا يخشى الموت في
سبيل اعتلاء الوطن وإنما يخشى الحياة تحت رقّ الاحتلال.
في مثل هذا المسرح يتحرك كلّ الجماد، وبالعكس فزغ
المشهد يمنع النهر الجاري عن الجريان:

يَوْمٌ تَجِفُّ لِذِكْرِهِ أَهْمَارُهَا
خَوْفاً وَيَجْرِي قَلْبُ كُلِّ جَمَادٍ
(م.ن، ص ٣٤٣)
فالفرع شديد إلى درجة أنّه يتحرك الساكن ويسكن
المتحرك، كأن كل شيء يخرج عن ذاته وصفاته الأصلية
ويلتجئ إلى صفة مغايرة له كل التغيرات ليوفر لنفسه الأمن
من خلال هذا التغير والتغير. مثل هذا المشهد يعطي
صورة بالغة في الفزع من الدهشة والخوف.

في هذه اللوحة بكلّ حركاتها الفياضة وسكونها (جري
الجماد وجفاف الأهمار) يجعل الشاعر الطبيعة مشاركة
لأبطال القصّة، ويسري فيها الروح والحيوية فلا يبقى في
المشهد شيء ليست فيه الحياة والروح، ولا يبقى فيه شيء
لا يشارك بنوع من المشاركة في بثّ روح الحماسة.

والأشياء التي كانت لها حركة؛ تستخدم حركتها في
هذه اللوحة لخدمة المشهد وأبطال المسرح. فالسيل يجري
في غير مجراه وطلّائع العقبان تنصرف عن حركتها إلى
حيث يدعوها المشهد:

فاتوا كما يجري الأتني^(١٢) مُشعباً

في غير مَجَرى مائه المعتاد

وكأن نابلين في إشرافه

علم على علم^(١٣) الزعامه باد

...

والفخر في رايته مُتمثل

وطلائع العقبان في ترداد

(م.ن، ص ٣٤٤)

وحتى الموت الذي هو مظهر السكون والجمود وانعدام

الحياة، يجد في شعر مطران حيوية، ويتحرك ليعطي اللوحة أثرها:

والموت في الجيشين غير مُجامل

يحتاج بالأزواج والأفراد

يطوى الصفوف ويترك الدّم أثره

فكأنه فلكٌ ببحر عباد

ما زال يفتكُ والنفوس زواهرق

وكأن تلك هُنيهة الميعاد

(م.ن، ص ٣٤٤)

أما تصويره عن الأصوات فهو يضبط في تصويره

ضوضاء وجلبة، كأنها من شدتها وحركتها وحيويتها تملأ

أذن القارئ بحيث لا يجد أمامه طريقاً للخلاص منها، فهي

جزء لا ينفك من هذا الصراع العنيف فلا بد منه:

ونكاد نسمع للقتال دويّه

وترى الفوارس في لَقاً و طراد^(١٤)

(م.ن، ص ٣٤٣)

فلهذا الصراخ أيضا حيويته ونشاطه في اشتعال نار

الحرب، فهو يماشي الأجزاء الأخرى في اشتداد التّضال

وتقويته:

وعلا هُتافٌ مازجته غماغم

من سلّ أسلحة وركض حياذ

ورنن آلات تكاد تُظنّها

مُتجاوبات العزف بالإيعاد

حتى إذا كمل العتاد تقاذفوا

بالتار ذات البرق والإرعاد

(م.ن، ص ٣٤٤)

فكل شيء له صراخه ودويّه في احتماء نار الوغى سواء

مما نعتاد أن نسمع منه صرخة كالحیوان:

وإذا جوادٌ خرّ فارسه دعا

بصهيله ذا حاجة بجواد

(م.ن، ص ٣٤٤)

أو مما لا يخطر على بال أن يكون له صدى:

تدعو الجراحة أختها بضدورهم

والسيف يتلو السيف في الأجياد

(م.ن، ص ٣٤٤)

فالجراحة عند مطران تسير فيها الروح لتحيى

وتدعو جراحة مثلها أن تدخل صدر مقاتل شجاع

ما يزال على استعداد للقتال برغم الجراحات التي

دخلت صدره.

أما المشهد أو مسرح الأحداث الذي يرسمه خلال

اللوحات الصوتية والحركية فهو أيضاً في دقة واستيفاء،

ويستخدمه في خدمة الهول والفرع الذي يريد أن يثبته في

نفس القارئ، فالحائط المرصوص من الأجساد والفوارس

الذين يلقي بعضهم على الأرض، ويطرد بعضهم بعضاً

والنار التي تتقاذف من كل جانب، ذات البرق

والإرعاد، كل هذه التصاوير تبث الروح في نفس القارئ

والتي تستدعيها مثل هذه الحرب. بالإضافة إلى

تصاويره الأخرى:

شهبٌ ضخامٌ آتيا و الردى

مسيرهنّ ومثلهنّ غواد.

ينفصل عنها، فيجد قاسماً مشتركاً بين الأمم وهو الانتقام من الجبارة.

- يستخدم مطران في شعره التاريخي الأسلوب القصصي لاجتذاب القارئ أولاً، ويجد طريقاً مؤثراً لإيجاد الصلة بين الأمم المختلفة باختلاف زمانها ومكانها ثانياً، فلم يتخذ مادة شعره التاريخي من أمته فحسب، بل من أمم أخرى مثل الفرس و اليونان وفرنسا وغيرها.
- يندد مطران بالأمم التي تخضع للظلم وتمهد بذلك الطريق للمستبد ليظلم أكثر وأكثر، وذلك دون توهين للشعب أو الخط من شأنه، مع أنه يعتقد أن الشعب هو المسؤول الوحيد عما يفعل به الطغاة.
- يفتخر مطران بتاريخ أمته، لكنه لا يجعل مفاخر الماضين وسيلة للمباهاة والغرور، وإنما يعتبره مسنداً يسند إليه الشعب ليصنع مستقبله على أساس العدل والاستقلال.
- دور مطران الريادي في الشعر التاريخي يتجلى في الامتزاج بين الشعر التاريخي والقصصي، كما يتجسد في استخدامه للهجة الساخرة، ويظهر أيضاً في خلق لوحات تموج فيها الحيوية والحركة والصوت لتصوير الوقائع التاريخية.

الهوامش

- ١- الرمم: العظام البالية.
- ٢- أودى به: أهلكه.
- ٣- الكالأ: العشب.
- ٤- هو من أكبر فراعنة مصر، والذي شاهدت مصر في عهده فتوحات كثيرة وعظمة خالدة.
- ٥- الشوس: الشجعان.
- ٦- مخالساً ذمة العلياء: أي خائناً لها.

تُلْقَى الرَّجَالُ عَلَى الثَّرَى قَتْلَى كَمَا

يُلْقَى السَّنَابِلُ مِنْجَلُ الْحَصَادِ

(م.ن، ص ٣٤٤)

ولتصوير خلجات النفس وما يعتريها من لوم الإنسان وظلمه لنفسه والأعمال التي يقوم بها، والتي يصورها مطران أحسن تصوير، نعود إلى قصيدته «مقتل بزرجمهر» حين يأتي الناس ليشهدوا قتل الوزير الحكيم وهم يعلمون صلاحه وحكمته وعظمة شأنه، فيحزنون ولكن لا يجراؤن حتى على إظهار الحزن:

مُتَأَلِّبِينَ لِيَشْهَدُوا مَوْتَ الَّذِي

أَحْيَا الْبِلَادَ عَدَالَةً وَتَوَالَا

يُبدُونَ بِشَرًّا وَالتُّفُوسُ كَظِيمَةٌ

يُجْفِلْنَ بَيْنَ ضُلُوعِهِمْ إِحْفَالَا

تَحْلُو أُسْرَتُهُمْ بِرُوقِ مَسَرَّةٍ

وَقُلُوبُهُمْ تَدْمَى بِهِنَّ نَصَالَا

و إِذَا سَمِعْتَ صِيَاحَهُمْ وَدَوِيِّهِمْ

لَمْ تَذَرِهِ فَرَحًا وَلَا إِعْوَالَا

(م.ن، ج ١، ص ٤٧٨)

النتيجة

- يربط مطران بين التاريخ والسياسة ارتباطاً وثيقاً. فهو لا يجمال في إعلان مواقفه السياسية ضد حكم الجور والظلم. وإنما يستخدم شعره في أداء رسالته في المجتمع، وذلك في النضال ضد الظالمين والمستكبرين، فيعتقد برسالة القلم العظيمة.
- يجعل مطران من التاريخ عبء لجيله، فلم يكن في شعره التاريخي كمؤرخ يسجل الأحداث والوقائع بلغة الشعر، وإنما يعتبر التاريخ أمماً للأمم ينبغي أن لا

- ٧- كهرته: عيست في وجهه وانتهرته.
- ٨- العتاد: الاستعداد.
- ٩- غواد: أمطار أو سحب الغداة.
- ١٠- السخال: أولاد الشاة.
- ١١- الرهل: الانتفاخ والورم من غير داء، والبادن: السمين، والأتلع: طويل العنق، والمسبطر: المسرع.
- ١٢- الأتئ: السيل.
- ١٣- العلم الثاني: الجبل.
- ١٤- اللقى: الشيء الملقى المطروح، و الطراد: المطاردة.

المصادر العربية

- [١] القرآن الكريم
- [٢] أبو شوارب، محمد مصطفى، (٢٠١٠)، خليل مطران: الكتابات النقدية، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
- [٣] جحا، ميشال، (١٩٩٥)، خليل مطران باكورة التجديد في الشعر العربي الحديث، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
- [٤] حجازي، أحمد عبد المعطي، (١٩٧٥)، خليل مطران، بيروت: دار الآداب.
- [٥] درويش، أحمد، (٢٠١٠)، خليل مطران المسيرة والإبداع، الكويت: مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري.
- [٦] الرمادي، جمال الدين، (لا تا)، خليل مطران شاعر الأقطار العربية، مصر: دار المعارف.
- [٧] عطوي، فوزي، (١٩٨٩)، خليل مطران شاعر الأقطار العربية، بيروت: دار الفكر العربي.
- [٨] عشقوتي، منير، (١٩٩١)، خليل مطران شاعر القطرين، بيروت: دارالمشرق.

المصادر الفارسية

- [١٥] اختر سيمين، حسين، (١٣٨٦ش)، نقش خليل مطران در طرح وتحول مكتب رومانتيك عربي (دور خليل مطران في طرح و تحول المدرسة الرومانسية العربية)، كرمانشاه: جامعة رازي.
- [١٦] حريجي، فيروز ومجتي محمدى مزرعه شاهي، (١٣٨٩ش)، مظاهر رومانتيك در اشعار خليل مطران (المظاهر الرومانسية في شعر خليل مطران)، فصلية علوم ادبي، جامعة قم، السنة الثالثة، الخريف والشتاء.
- [١٧] حسنعلي محمدي، بتول، (١٣٨٠ش)، خليل مطران خاتم مكتب كلاسيك، فاتح مكتب رومانتيك

- [٢٠] سليمان پور، زهرا، (١٣٧٢ ش)، خليل مطران شرح احوال وبررسي آثار وشرح تعدادي از قصائد (خليل مطران: نبذة عن حياته ودراسة أعماله الأدبية و شرح عدد من قصائده)، اصفهان: جامعة اصفهان.
- [٢١] فوگل، اشپیل، (١٣٨٠ ش)، تمدن مغرب زمین (الحضارة الغربية)، ترجمه: محمد حسين آريا، طهران، نشر امير كبير.
- (خليل مطران: مختتم المدرسة الكلاسيكية، ومفتتح المدرسة الرومانسية)، طهران: جامعة تربيت مدرس.
- [١٨] خنشا، سارا، (١٣٨٦ ش)، بررسي شعر رومانتیک خليل مطران (دراسة في شعر خليل مطران الرومانسي)، طهران: جامعة آزاد الإسلامية، طهران.
- [١٩] دهقاني احمدآبادي، فاطمه، (١٣٧٨ ش)، خليل مطران واشعار داستاني-تصويري (خليل مطران و اشعاره القصصية - التصويرية) طهران: جامعة آزاد الإسلامية، طهران.

خلیل مطران، شعر تاریخی و مبارزه سیاسی

منصوره زرکوب^۱، زهرا سلیمان‌پور^۲

تاریخ دریافت: ۱۳۹۱/۳/۲۲

تاریخ پذیرش: ۱۳۹۱/۷/۲۲

شعر از دیر باز تصویرگر وقایع زمان خود بوده و هست و شاعران زیادی از جمله مطران در شعر خود به ثبت وقایع تاریخی پرداخته‌اند. ما در این مقاله ضمن بررسی شعر تاریخی مطران، نظر وی را در زمینه‌ی ارتباط بین تاریخ و سیاست مورد بحث قرار داده‌ایم. این مقاله به موضع‌گیری مطران در برابر ستمگران تاریخ می‌پردازد و نقش مطران را در رهبری جنبش نوآوری در قصائد تاریخی وی تبیین می‌کند و سبک شعری را که برای بیان نگاهش از آن استفاده کرده بررسی می‌کند. نتیجه‌ی تحقیق نشان می‌دهد که شاعر به شعر تاریخی به عنوان ابزاری برای ثبت حوادث تاریخی نگاه نمی‌کند بلکه از آن برای تقدیس آزادی و مقابله با ظلم و استبداد استفاده می‌کند. او ملت‌هایی را که با خضوع و تسلیم در برابر ستمکاران، حاکمان ظالم را ساخته و پرورش داده اند محکوم می‌نماید و در مقابل ملت‌هایی را که در برابر ظلم و ستم ایستادگی کرده و در این راه به دعا و امید واهی بسنده نکرده اند مورد تمجید قرار می‌دهد. او نه تنها موضوع شعر تاریخی خود را از تاریخ مصر - گذشته و حال آن - می‌گیرد بلکه به تاریخ ملت‌های دیگر مانند ایران و روم توجه دارد، چه او معتقد به وجود رابطه‌ای مستحکم میان ملت‌هاست و این رابطه همانا انتقام از ستمگران است. مطران در شعر تاریخی خود از جنبه دیگری نیز پیشتازی خود را در نوآوری در شعر به اثبات می‌رساند. او از سبک داستانی استفاده می‌کند تا ضمن جذب مخاطب - در هر زمان و مکان- از تأثیر گذاری کافی برخوردار باشد. شیوه‌های بیانی دیگری مانند ریشخند را نیز در کلام خود به کار برده، از تصویرگری در القای پیامش غافل نیست.

کلمات کلیدی: خلیل مطران، شعر، تاریخ، سیاست، نوآوری

۱. دانشیار گروه عربی دانشگاه اصفهان، zarkoobm@yahoo.com

۲. دانشجوی دکتری گروه عربی دانشگاه اصفهان، soleymanpoor@yahoo.com

Khalil Mutran, Historical Poems and Political Struggle

Mansureh Zarkob¹, Zehra Suleimanpour²

Received: 2012/6/11

Accepted: 2012/10/13

Abstract

From the time immemorial, poetry has been the manifestation of events of its own time and a large number of poets including Mutran have emphasized on historical events in their poems. The current study, besides surveying Mutran's historical poetry, will discuss his outlooks about the relationship between history and politics. As such, it reviews Mutran's stance against tyrants of history and explains his role in Innovation Movement in his historical poems and the poetic style he used to express his viewpoints. This research shows that the poet didn't use the historical poem as a tool to record historical events but applied it for sanctifying the freedom and coping with the tyranny, thus he condemns nations who bow to tyrants with humility and submission and praises those who stand firmly against oppression and in this way didn't suffice pray and false hope. Mutran is inspired by not only the past and the present history of Egypt rather he also pays attention to history of other nations such as Persia and Rome; because he believes in close relationships among nations and this relationship is like revenge from oppressors. Mutran in his historical poems includes his innovation aspects i.e. narrative style to attract audiences of any time and at any place. He employed other expressive techniques such as sarcasm in his language. He is also not unaware to use illustrations in his language.

Keywords: Khalil Mutran, Poetry, History, Politics, Renewal

1. Associate Professor, Department of Arabic, University of Isfahan, zarkoobm@yahoo.com

2. Ph. D. Student, Department of Arabic, University of Isfahan, soleymanpoor@yahoo.com